

مجنون القمّة (مقامة)

في قديم الزمان، ومكان غير هذا المكان، اجتمع بنو قحطان، وإخوتهم من بني عدنان، والبربر والكلدان، والأقباط والإخوان. وكان بين الحضور، قوم آشور، الذين آثروا الظهور. وأتى نضر من الأحباش، وبعض الأوباش. وأرسل الفرنجة رسولهم، ليقف على أمورهم، ويعرف علومهم، فكان يراقبهم، ولا يخاطبهم، ولا يجاملهم. وكان الحزن يخيم على الجميع، على الوضيع منهم والرفيع، والكهل والرضيع، والكأبة بادية على الوجوه، ولو ضحك أحدهم لذبحوه.

بعد نحنة وعطسات، وغمغمة وغمزات، وحشرجة وتجشآت، قال قائلهم، وهو يرمقهم، كأنه يعاتبهم: إن لنا أحماراً، يُعلنها جهاراً، سألعلها ضراماً، يقولها مراراً، فالله الله لا تصدقوه، واكفروا به وكذبوه، واتركوه وتجنّبوه، فهو سبب المصائب، مراوغ كالثعالب، مهاجم كالعقارب، فلا تضيعوا أنفسكم، وانظروا في أمركم، وثوبوا إلى رشدكم.

وانتبه أحدهم من نومه، على قرع صاحبه ولومه، وسبّه وشمته، ونظر إلى من حوله، وقومه وشملة، وإخوته وآله، وأيقن أنه في اجتماع، وأن الجمع في وضع استماع، فقال وهو يفرق عينيه، ويرطب شفتيه، ويمسح على وجنتيه: رحم الله أبي بشفاعته جده النبي، لقد حشرنا مع الغبي، ورضي بالقتل والسبي، وهانحن اليوم نبوء بالدمار، في الليل والنهار، ولم ينته بعد هذا الشجار، ولا ذنب لنا نحن الصغار.

فقال ثالث يطمئنه، ويبشّره ويهنئه، ويجمله ويزينه: لا تثرِب عليك يا صبي، ودعك من أبيك والغبي، والحرب والدوي، فأنت ابن اليوم يا غلام، وليس عليك أي ملام، ولا قول ولا كلام، لكن إن أردت أن نشترِك، فلا يركبك الهم ولا يعتريك، فعليك أن تبرأ من صاحب أبيك.

فضمه الغلام الإشارة وفطن، ووقف لكن لم يبين، وقلب لصاحبه ظهر المجن، وتبرأ منه إلى الأبد، ووثب في وجهه كالأسد، وبارك الهجوم على البلد، فاعتبروه أخاً في الجد، وصار أهلاً للود، بعد أن كان من دول الضد، وفرح الغلام بنجاته، وانكشم على ذاته، ورجع إلى سباته.

وهكذا فلت ابن الدوقة، لكنهم رمقوا باقي الجوقة، الذين باركوا الأرض المحروقة، فخارت قواهم، وخالفوا هواهم، والطمع الذي أعماهم، وتابوا إلى الوضع الجديد، وقالوا قولاً سديداً، ولان ما كان بالأمس صلباً حديداً.

لكن أسداً ورم أنفه، وشهر سيفه، وحدهم بطرفه، وقال: نعتس لكم يا عبيد الدنيا، قنعتم بالدرجة الدنيا، هذا أخوكم يطلب المدد، في الجند وفي العدد، ذوداً عن البلد، فكيف جعلتموه وراء ظهوركم، وبالأمس كان يذود عن ظهوركم، ويحمي ثغوركم، شاهت الوجوه، أكلمنا وقع أحدكم نبذتموه، وكلمنا نعق ناعق تبعتموه؟

قالوا له: حسبك يا غلام، أكثرت من الكلام، اسكت والسلام، صرت تتخبط بغير هدى، وجعلت تراث أبيك سدى، فما عدا مما بدا؟ فقال أحدهم للغلام: أنا معك يا عمي، ويا أعز من أمي، دمك دمي، وشحمك شحمي. أما هؤلاء الأقزام، فعقولهم أحلام، وأحلامهم أوهام. قالوا له: هبلتك الهبول، وحسابك يطول، سمن كلبك يا كلك، جوع بخلك يرفسك، وهذا جزء الإحسان، تسلقنا باللسان؟

وكان أكبرهم يغط في نوم عميق، ونخيره كريح تضرب وإدسحيق، أو كعربة تجري في الطريق، فوكزه أحد معاونيه، وقرصه أحد مرافقيه، ورفسه أحد ملازميه، وانتبه أن السيل آخره غشاء، وأن الفوز في الدهاء، وأن الكتف تؤكل عند البلاء.

فقال: الأمر أمران، وكلاهما مران، إذا ما ركبت مركبكم خسرت قافلتني، وأضعت معاملتي، وظلمت عائلتي، فلا تضيعوني يرحمكم المولى، وأعينوني على نفسي باليمن والسلوى، وإلا ناصرته فهو الأولى، فأين أنا منكم، ومما في جيوبكم، وأنا ككبيركم؟

قالوا له: تبت يداك، والخير عداك، بالأمس لم يكن لنا إلاك، واليوم اهتدينا إلى سواك، فأمننا العظيمة، الرؤوفة الرحيمة، الطيبة الكريمة، قادمة لا محالة، فدع عنك الجهالة، وحرقة الدلالة.

وبينما هم كذلك، يوضحون المهالك، ويصفون المسالك، دخل عليهم المجنون، قال ماذا تفعلون؟ ولم أنتم مجتمعون؟ لأفرقن شملكم، وأبدنن حزبكم، وأبعثرن جمعكم، إذا تأخرت في الحمام اجتمعتم دوني؟ لم سكتم ولا تجاوبوني؟ لأسفهنكم واحداً إثر واحد، ليعلم أمركم الغائب قبل الشاهد، فلا تقوم لكم قائمة في المشاهد.

فأنت أيها البدوي، جئت أمراً غير سوي، وغفلت عن جيشنا العربي القوي، واتصلت بالأعداء، ودعوت الأصدقاء، وحرصتهم على الأشقاء، ولو كان بيدك لركبت فرس الشيطان، وتعاونت على الإثم والعدوان، وحرابت الرحمن، لكنك يا هذا معذور، وأظنك ماجور، ولولاه لكنت في قبرك مطمور.

لم يرض البدوي بما قيل من سيرته، ورفع عقيرته، وقام بنوه وعشيرته، وغنى البدوي الغناء الشفوي الذي جاء بشكل عفوي: لا تلعب بالنار تحرق أصابعك

لا ترمي بحجار عندك شبابيكك

لا تفتح هالباب ثبت مساميرك

لا تمشي وتروح إلزم مواسيرك

لا تحكي وتقول تفضي وساويسك

لا تكذب عالناس ملوا أكاديك

فضحك المجنون من نفسه، ومن برج نحسه، وغروب شمسه، ووقف بشكل ساخر، وغنى هو الآخر، وأطرب المجلس العامر:

ليه ليه ليه يا حمد، يكذب يا حمد، وهو عارف إن الكذب ملوش، رجليين؟

ليه ليه ليه يا حمد، يزعل يا حمد، وهو عارف إن الحق ملوش، لونيين؟

ليه ليه ليه يا حمد، أسكت يا حمد، وانت عارف إنني أنا مليش، وشين؟

ولما بدا الخلاف، وظهر ما تحت اللحاف، وأن القوم كالنخل العجاف، أمر رسول الفرنجة قومه بعزف الكمنجة، ودق الطبول، وتجهيز الخيول، ليوم مجهول.